

العربية تحمل في ذاتها نزعنا إنسانية . هي إسهام العرب في حضارة العالم

الأسيا ذكريّة الارسنوزي

في الالف قادر على انشاء رسالة الى صديق بلابنية مستقيمة ولكن اذا استدعى الامر كتابة العربية فكم منهم من يستطيع ان يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة . بل لقد يقروضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمة شعر العرب انفسهم - الفارو » .

ولكن لما كرت أوروبا على العرب واحتلت فرنسا لبنان ارتفع صوت مائل لصوت الفارو في الشكوى غير ان الشكوى في هذه المرة كانت من مدرس اللغة العربية على اهمال الناس لغة اجدادهم من اجل لغة الفاتحين (اللغة الفرنسية)

واذا كان مصير اللغة يتبع مصير متكلميها افلا تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث المقدرة على البيان وتشخيص المعنى ونقله حيا الى الاذهان ؟ في مجال المفاضلة بين لغة واخرى كمجموعة من الادوات . يقول الفكر الالماني هوستون شامبرلسن : لو بقي « كانت » على لغة اجداده الانجليز ما كان بلغ ما بلغ من شأو في الفلسفة . وهو يستعمل اللغة الالمانية . واذا كانت شعوب أوروبا قد اتخذت اللغة اللابينية لغة اساسية في تعليم الناشئة ، فان الاختيار لم يكن بتاثير الدكريات التاريخية (ذكريات روما القديمة) بل لان اللابينية اصلح من لغات هذه الشعوب لابضاح المفاهيم الانسانية .

احد المؤرخين الفرنسيين (ارنت دين) يقول في حديثه عن الوحدة الالمانية ان مصير اللغة يتبع المصير السياسي لتكلمها ويضرب لنا مثلا بتساوب الناس في الاقبال على اللغة الالمانية او اللغة الفرنسية تبعا لمركز كل من المانيا وفرنسا السياسي في العالم ، وللعرب تجاربهم من هذا القبيل ، فلما بلغ المد العربي في غضون القرون الوسطى سهول فرنسا أصبحت ثقافة العرب منهل الشعوب الاوروبية واليك بعضا مما ورد في هذا الشأن على لسان احد ادباء ذلك العصر :

« يطرب اخواني المسيحيون لاشعار العرب وقصصهم ، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين ، لا لتنفيذها بل للحصول على اسلوب عربي صحيح رشيق ، فابن تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللابينية على الكتب المقدسة ، وابن ذلك الذي يدرس الانجيل وكتب الانبياء والرسول ؟ وا اسفاه .. ان الشباب المسيحيين الذين هم من ابرز الناس مواهب ليسوا على علم من أي ادب ولا اية لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العربية ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ، وهم يترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب وانك لتراهم من الناحية الاخرى يحتجون في زوايا اذ ذكرت الكتب المسيحية بان تلك المؤلفات غير جديرة بالشفاهم فوا حر قلباه . . . لقد نسي المسيحيون لغتهم ولا يكاد يوجد منهم واحد

وأما مقدرة اللسان العربي على البرهان فقد استرعت انتباه كل من أولى عنايته دراسة لغة الضاد واليك بعضا من ما تورد القول في هذا الشأن :

« فاما ما نحن بصدد ذكر اللغة العربية فلا نزاع في ميزتها على سائر اللغات وفضلها ، أما السعة فالامر ليها واضح ومن تتبع فيها جميع اللغات لم يجد ليها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد ، على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيرا » (سر الفصاحة لان سنان الخفاجي) يضاف جمال الصوت الى ثروتها المدهشة في المترادفات (الزهر في علوم اللغة للسيوطي) نعم ان المعاني يمكن ان يعبر عنها باللغات الاجنبية ، ولكن العربية تستطيع ان تنقلها بدقة اكثر وايجاز اتم . (الزهر) وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من البسر في استعمال المجاز ، وان ما بها من كنيات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرا فوق لغة بشرية اخرى . . ومثل هذا الحال يجعل الترجمة المرضية من العربية واليها امرا مستحيلا . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ابصال المعاني ، وفي النقل اليها يبين ذلك ان الصورة العربية لاي مثل هي اقصر في جميع الحالات فليس كلام ينقل الى لغة العرب الا ويجيء الثاني اوجز من الاول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها .

ولقد ادهشت الكفة العربية بمقدرتها على البيان . يقول ابو داود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية: انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السريانية قبحت وحسنت « واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسنا . ويقول الفارابي بصدد البيان في لغة الضاد . هذا اللسان كلام اهل الجنة وهو المنزه من بين الالسنه من كل نقيصة والمعلي من كل خسيصة والمهدب مما يستهجن او يستبشع وفضلا من ذلك فان فصاحة العرب الفطرية مجيبة .

ومع ما عليه مركز العرب السياسي اليوم من وهن فان الاستاذ هنري دوباستيه يكتب في جريدة (لوموند) عن رسالة اللغة العربية نحو الثقافة الانسانية :

« ان اللغة العربية التي نبتت في الصحراء ، حيث يشخص النظر في كل ليلة نحو السماء الثلاثة بالنجوم ، ان تلك اللغة بمحتواها الانساني والالهي ، توجه الالهن نحو السمو ، نحو المثل الاعلى ، نحو المطلق . وهكذا فان اللغة العربية تحمل في ذاتها نعمة انسانية كانت نعمة المسيح والتي لا تستطيع لغاتنا البربرية البتة ان تعبر عنها بوجه من الوجوه وهي تشكل اسهام العرب في حضارة العالم . وهذه اللغة هي كنز العرب .

ونحن الاحفاد ، يحق لنا ان نضيف رأينا في مزايا اللسان العربي الى آراء السابقين في هذا المضمار ولاسيما اذا كان هذا الرأي يفسر لنا سر تفوق هذا اللسان على غيره من اللغات . فنحن نرى ان اللسان العربي اقوى من اللغات الاخرى في توضيح المفاهيم الانسانية بمشابة حسن الرؤية من حواس الجسد . ومزية اللسان العربي هذه ترجع الى الخيال المرن المتضمن في الكلمة والخيال المرن او الصورة هذه تبرز من ثنابا البنية الاشتقاقية للكلمة العربية كظهور صورة الاشراق في معنى كلمة « ذكاه » المتضمنة صورة ذكاه الشمس . ولقد مثلت ذات مرة الكلمة العربية بين شقائقها في الاسرة بمصباح في ثوبا يزداد معناها تالقا بتجاوبه مع معاني شقائقه في الاسرة . كما مثلتها مرة اخرى بنفيسة في انشودة من حيث اثارها للانفعالات العميقة في تشخيص المعنى وتحقيقه .

فالى م يرجع امر مزايا اللسان العربي هذه ؟ ترجع هذه المزايا الى نشأة لساننا البدائية والانسجام بين المحسوس والمقول بين المسميات الحسية وبين المعاني المجردة كما ترجع الى الانسجام بين المضمون وبين العبارة ، اي بين المعنى المتضمن في العبارة نفسها . ظل اللسان العربي امتدادا لعبارة الهيجان الطبيعية وتجسيدها لها . الاخ والاخوة والاخاه هي امتداد لعبارة آخ عبارة التوجع الطبيعية . واذا اضيف الى صوت الهيجان اصوات اخرى كالاصوات المستحدثة في الفم (بت) الحاصلة من تقاطع اللسان بالنطق ومنها . بتر والباير واذا اضيفت الاصوات المقتبسة من الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ومنها خرب وخر ؟

بل هناك البيان الصوتي أيضا . معلوم ان اللسان امتداد صوتي لعبارة الهيجان التي تجسد الشعور وتشارك بتجسيدها آياه الآخرين . واليك مثالا عن هذا المعنى في لساننا من الازراب .

حركة الفتح تعبر عن معنى الركون الحاصل من ركون اللسان عند خروج الصوت وتمدد الدهن في المفعول والفعل الماضي الى المشاركة في هذا المعنى . وحركة الضمة الحاصلة من تدافع الصوت تعبر عن الفعالية وتمدد الدهن للمشاركة في معنى الفعالية في الفاعل وفي الفعل المضارع .

ذلك هو اللسان العربي بمثل الحياة في صمودها نحو الحق والحقيقة .

واذا تجمع ذلك كله فان الحياة تنمو في تطورها بالاستناد الى الايقاع والى حسن الرؤية المتصفة بالوضوح والدقة .

فالى نشأة كل من الكلمات العربية من صوت طبيعي يرجع الانسجام بين المحسوس والمقول . كلمتا ذكاء - الشمس والذكاء في النفس يرجعان الى صوت ذلك وتكون الشرارة الى حالة من ذلك صورة حسية للاشراق (الذكاء) في النفس . وكذلك الكلمتان شريعة وشارع يرجعان الى صوت شر والشارع تعريف بالمحسوس للشريعة كمجموعة قواعد يسلك عليها الناس في علاقاتهم بعضهم مع بعض .

وليس البيان في اللسان العربي بالمجاز فحسب